يبدلوا وامنوا ببعض وكفروا ببعض ومنه عدم قبولهم ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم
والحكم الحق فيه ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه فان قلت قد عادت ضمائر الصلات الثلاث
الى موصول واحد فلزم الا يتعدد من حيث المعنى وهو لا احتمال الاول ولم يذكر الكشاف
وغيره سواه قلت لا يلزم ما ذكرت ونظره قسد مزاح الذي لم يحكم ولم يقصد ولم يكن
المسهل من الصفات وتبين فان البيان يعود الى الاخر ومعنى الكلام من لم يعمل احدها ونظر
ذلك الاشارة في قوله تعالى ومن يعمل ذلك يلق اثاما بعد ذكر الشرك والقتل والزنا فانه لا يشترط
جمعها والحاصل انه من عود الضمير الخاص على العام وقد تقدم في البقرة وعلمنا ما اخترناه عمم
الجزية كل كافر اخرج مسلم واحمد وابن ماجه والترمذي وصححه وابو داود عن بريده
قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا امر الامير على جيش او سرية اوصاه في
خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا
من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فاذا لقيت
عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فان اجابوك فاقبل منهم وكف
عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واخبرهم انهم ان فعلوا ذلك
فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم فان ابوا ان يتحولوا عنها فاخبرهم انهم يكونون كاعراب
المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء
الا ان يجاهدوا مع المسلمين فان هم ابوا فسلهم الجزية فان اجابوا فاقبل منهم وكف عنهم
فان هم ابوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم فهذا النعم واضح وقد احتج به ابن تيمية على
ذلك نعم لا يوخذ الجزية من العرب لانها لم تشرع الا بعد الفتح وقد دخلت العرب
في دين الله افواجا وتوجه صلى الله عليه وآله وسلم لحرب الروم في غزوة تبوك آخر عمره والله
ولذا لا يسبى عربي اليوم ايضا لانه بعد عموم الاسلام لا يقبل منهم اذا ارتد والا الا
او السيف كما هو شان المرتدين من غيرهم ايضا وقد يتوهم كثير انها خصوصية للعرب ليس
ولا لقرب عليهم جزية وليس الا ما ذكرنا وقد سبى صلى الله عليه وآله وسلم في عدة غزوات
كبني المصطلق وهوازن ولم يصح في نسخ ذلك شيء وما جاء حديث لا سبي الا في هوازن
وكذلك العرب اهل الكتاب كنجران واكيدر دومة وعلى الجملة فهو معلوم وانما نعد الان
لما ذكرنا وان الصحابة استفتحوا بلاد فارس والروم وفي رعاياهم عرب لا سيما الشام
والعراق ولم يفتشوا على العربي من العجمي بل اجروا السبي والجزية على جميع من لم يسلموا عليه
قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا من قبل اي هولاء الذين ضلوا بالكتاب وعموا

انهم متمسكون به قد شابهوا سائر الكفار قبلهم في كلمات الكفر كمن قال منهم الملائكة بنات الله
او كما قال تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا او في مطلق كلمات الشرك والكفر ولا يبعد
حمل التشبيه بين اخر كل من الفريقين واولهم لاتحاد الشرك فيهم ولا بين اليهود والنصارى
لان الضمير عائد الى المجموع الفريقين لا الى النصارى وحدهم وعلى ما حررناه في الكشاف
يصير المعنى بيناهي اخرهم اولهم او يضاهي بعضهم بعضا وفيه ما ذكرنا فلا وجه لحمله
ولا ملجيء قوله تعالى اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله هذا التعبير شامل للفريقين
وقد فسره صلى الله عليه وآله وسلم فيما اخرجه ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه
وابن المنذر وابن ابي حاتم والطبراني وابو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن
عدي بن حاتم قال اتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرا في سورة براءة اتخذوا احبارهم
ورهبانهم اربابا من دون الله فقال اما انهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا اذا احلوا
لهم شيئا استحلوه واذا حرموا لهم شيئا حرموه القطع انهم لم يكونوا يرون لهم نسخ كلام
الله وكلام الانبياء والا لما نسب اليهم التحليل والتحريم ولا صح تشبيههم بالارباب واذ
ذاك الطريق الواجب والقطع انهم لم يكونوا يعلمون لكن بهم في جميع ما اتوا به فما بقي
الا انهم حسنوا فيهم الظن واطمانوا اليهم واستغنوا بهم عن كلام الله وكلام انبيائه
وقالوا هم احسن منا وارسخ عرفا ولا نطيق بانفسنا بطلب الحق انهم مطلعا وفي
بعض المطالب ولا بد للعامة الذين يبعدوا عن النظر من الاستغناء بهم في الجملة فلنسترح
الجهد المهيع اللين ونتفرغ لسائر المطالب الدنيوية والاخروية ثم نفوا بحسب
تزيين الاحبار والرهبان وتعصب كل منهم لمتبوعه وكان حكم الحق عليه الى ان كفر
بعضهم بعضا وصار واسفك بعضهم فرقة اذا عرفت هذا علمت ان هذه الامة
سلكت مسلكهم حذو النعل بالنعل وقد تواترت الاحاديث بذلك معنويا ان هذه
الامة ستفترق كما افترقت اليهود احدا وسبعين
والنصارى ثنتين وسبعين فهذا الوقوع من المعجزات النبوية ان قلت ما تسوغ في
العقل من كامل للعقلاء المسلمين المعروف وجدهم في كثير من الحرص على ما ذكر قلت الذي العدم
الذي حمل الاسرائيليين وهم كانوا اشد تعمقا الا وهو حب الرياسة والجاه والمرافق
وقد جرت سنة ذلك في جميع من راس من الاحبار يكتمون الحق وهم يعلمون ويحلفون بما علموا
الناس ان يسلكوا الطريق الموصلة الى ما يشق عند الناس ويدعون ما يوصل الى حقائق
المطالب فيا ليت بعد الخلق بربك وتنزههم عليه وقد وفقنا لخلع عاداتهم وسلوك طريق